جماليات التلقي، ومنظور آخر لكتابة التاريخ في رواية حكايات طرح النيل[1]، للسيد نجم

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوري

رواية صدرت عن (الهيئة المصريّة العامة للكتاب: القاهرة، 2018م) مكوّنة من حكايات عشر، ربطها الكاتب بزمن اعتباريّ تراوح من حكايات ليلة طويلة، وحكاية ما قبل الفجر وصولًا إلى حكاية ليل جديد وآخره، ولعلّ حاسة شمّ الروائح لدى شخصية القصة الرئيسية نواف العجرودي التي منحته طاقات استشرافية أضفى على هذه الرواية اتساقًا، ووحّدها موضوعيًّا عن طريق تجسيره أحداثها بتلك الرائحة، التي تربط صاحبها بفضاءات الرواية وأحداثها وشخصياتها.

جعل الكاتب القاسم المشترك لفصول روايته في عناوينها، الرائحة (وشايتها، نفاذها، درجاتها، تجاذبها وتنافرها، اختلافها، اختفاؤها، انفلاتها، تمردها، غيابها، افتقادها) وإلى جانبها حكايات نواف مع زوجته وصديقه الجعر والعمدة وأبنائه الأربعة الذين رفعوا عليه قضية للحجر عليه وعلى أملاكه، ووقف التصرّف بها! إضافة إلى عناوين فرعيّة ابتداء من خروج نواف ليلًا، وحكاية النسوة، ونواف في الصف الأول، وحكايته مع أبوقردان، وحكاية حيرة الأحبة، وحيرة نواف مع السيجارة، ومع وحدته، وقلقه على ابنته روح، وحكايته مع ابنه مصيلحي، وأخيرًا مع ابنته حفيظة.

---

[1]– بالأصل قدمت في مختبر سرديات مكتبة الإسكندرية، في عام 2019م

خلخل المؤلّف الزمن باستباقه أحداث واسترجاعه أخرى، من دون أن يعقد عقدًا مرجعيًّا بين القارئ والنصّ، ففي حكاية بعد صلاة الفجر، حين بدأ الفأر يلعب في عبّه؛ يأخذنا الكاتب نحو عشرات السنين من حياة نواف، الذي تعدّى عمره العقد السابع في مطلع العقد الثاني من الألفيّة الثالثة، وبدأ يقلق على ابنيْه وبنتيْه، ثم يسترجع موت أفراد القبيلة، ووباء الكوليرا الذي حلّ في كفر الدّوار.

شيّد المؤلّف شخصيات روايته عن طريق أفعالها غير البعيدة عن مقتضيات السيرة الغيريّة، فنجده يروي حكاية نواف والجعر الصديقين منذ الطفولة، ويدرك القارئ ملامح تكونهما عن طريق سلوكهما، كما يروي عن زواج نواف من هانم، ولا يصفهما بل يحيل القارئ؛ للتعرّف عليهما عن طريق حياتهما المشتركة، ويحدّد الزمن الذي تمّ فيه الفعل الدراميّ بأواسط الخمسينيات، زمن إطلاق الرصاص على عبد النّاصر في المنشية.

تأرجحت الأحداث منذ أربعينيات القرن العشرين، حين اجتاح مرض الكوليرا مصر، ومرورًا في الخمسينيات وحرب الـ56، والستينيّات؛ التي عرف أثناءها أهل الكفر استخدام المبيدات الزراعية، وكيف لقّبوا نواف بـ: (أبو قردان) في الثمانينيات.

ولعلّ اجتياح المتن الحكائيّ للرواية ألفاظٌ تتساوق مع الزمان والمكان؛ كان بهدف تسهيل ولوج القارئ في عوالم كفر الدوار والإسكندرية بوصفهما إطارين مكانيّين رئيسيين، إضافة إلى انفتاح السرد نحو أمكنة أخرى وكيانات لم تكتمل ملامحها في النصّ، إلّا بعد صياغة أحداثٍ ارتكازًا على حقائق تاريخيّة، ومن

الملاحظ عدم إشادة الكاتب فضاء تخييليًّا خارج الواقع المعيوش، بل أشرك شخصيات كثيرة في سرد الأحداث التي أراد لها ان تكون بمرتبة تأريخ جديد لأحداث محفورة في الذاكرة الشعبيّة وفي التاريخ الرسميّ، وبذلك يكون الكاتب قد نجح ضمنًا بأن جعل نصّه الروائي سبيلًا جديدًا للتأريخ.

يذكر حكاية طعن نجيب محفوظ على لسان ابنة نواف، روح، واختار لها تقنية الرسالة التي أرسلتها لأمها، وضمّنتها هواجسها تجاه عملها وحياتها، ثمّ ذكرت مؤلفين وأغانٍ، كما يوظّف خطابًا لا يخلو من دعابة حين تنهي الابنة رسالتها بـ: "لن أبعث برسالتي إليك.. لأنك لن تفهمي، أقصد لن تفهميني" ثمّ يروي حكايات مصيلحي ابنه الأصغر، طالب الحقوق الذي أراده أن يكون وكيل نيابة، ولكنّه خيّب آماله، ولعلّ متابعة المؤلّف وقائع التاريخ وأفعال الشخوص ضيّق من مساحات الوصف في بنية السرد.

تطابقت رؤية السارد مع رؤية الكاتب في أثناء عرض أحداث معروفة في تاريخ مصر، واتسعت البنية الزمانية للرواية، ممّا ألزم الروائي السيد نجم الإكثار من عدد شخصيات الرواية، التي منحها دلالات عن أحداث بمنظار رؤيويّ مختلف، عن طريق اكتناه الشخصيات سمات مضمرة، ولعل هذه التقنية الجمالية يو ما يجعل القارئ مشاركًا في سرد الأحداث.

أكثر السارد من مواقف السخرية ومشاهد الهزل، فخروج نواف ليلًا المنفلت كقطّ، بغفلة عن زوجته القوية، واكتشافه عدم وضوء الجعر في الشتاء، ليفتح باب التيمّم، وضحك النسوة من سَحْبِ أحد الرجال لزوجته من وسطهن ليختلي بها

في غرفته... والمتتبع لكثير من مشاهد السخرية والتهكّم، يدرك رغبة الكاتب إشراك القارئ بالأحداث، التي مزجها بالحياة الشعبية، ممّا جعلها مألوفة.

إن المواقف التي قدّمها الكاتب عن نواف والجعر، بصفتهما شخصيّتان عبثيتان، يعسعسان في الليالي ويشرعان في شرب الحشيش، ويسرقان و... تكشف عن آلية الباروديا الإجرائيّة في المتن الحكائي، فموقف دفن الموتى وشيخ الخفر الناسي مواقع الدفن: "هو أنا مخّي دفتر، أفتكر مين ولا مين"، أو حين يتحدث نواف عن زفارة دم الفئران والرطوبة المكتومة في السيجارة؛ التي دخّنها في حضرة الخواجة، مما جعله يعمل خرمنجي في شركة الدخان، أو حين ذكر نقل نواف رفاة أبيه إلى المقبرة، فترحّموا عليه وقالوا: "لو كان عاش وشاف ما عملته بدفنته كان صلى وصام ودعا ربه لأجل أن يموت ألف مرة..."، ومنها: "... ويتشاجرن، وأكثرهن شراسة دلال لأن زوجها ساعي بريد، وزكية الابنة التي فضحت زوجها محرز الذي لا يضاجعها، إلّا إذا تحايلت عليه، ولعلّ الكاتب أجاد توظيف تقنية الباروديا، حينما خاطبت دلال زوجها أمام جمع النساء، أن ملابسه طاهرة طوال أيام الأسبوع، مما أضحكهن، وأغضب الزوج... إضافة إلى وصفه لأنف نواف الذي اشتم النقود، لأنّ رائحة الفلوس ممزوجة بالفسيخ.

ومن أكثر المواقف سخرية شخصيّة خضرة، التي توهّمت نفسها زوجة للعمدة، ولكنّ السارد يدفع الأحداث لإجبارها خلع ملابسها وإظهار قميص نومها الناريّ، ثمّ تمكّنت من الزواج من الخفير "النمرة" صاحب الحاجبين والشارب؛ حتّى تخاله بلا عينين ومنقوص الشفتين.

وفي موطن آخر يجعل أعشاش العنكبوت موزّعة على زوايا حوائط مركز البحوث الذرية في أنشاص، ومن المواقف المضحكة تسليم الشيخ أم سحلول حجابًا صوفيًّا رطبًا، هامسًا في أذنها أن تضعه في فرجها، و"الرجل دسّ بذرته في رحم الغلبانة أم سحلول!"

تشظّت أحداث نصّ حكايات طرح النيل الروائي، بعد أن وظّف الكاتب تقنيّة التناوب في تشييد معمار بنيات نصّه الحكائيّة، فقد وزّعها بين الحوار والتأريخ والوصف والتخييل السير غيريّ، وقام بتوليف سرديته، ونثرها في سياق حكايات، ولعلّ هذه الخصيصة هي ما توحي بتعدد أصوات الرواية، وثراء المعاني التي تضمنتها، وكثرة الموضوعات، لتحقيق أهداف وضعها الكاتب نصب عينيه في أثناء تأليفه روايته تتعلق بالتأريخ الجديد عن طريق السرد الروائي، وبناء على ذلك وظّف الفعل الماضي، وأخبر عن وقائع ليست غريبة عن وعيّ القارئ، فأدرج أحداثًا ذكرها التاريخ الرسميّ، ولكن بقالب شعبيّ مستمدّ من شخصيات روايته وحياتهم المعيشة، وها هو ذا يذكر تنحي عبد الناصر بعد نكسة 1967م، وينقل ردّات فعل شخصيات روايته المبنيّة في حيّز مكانيّ شعبيّ، ثم نجده ينقل وقائع تاريخيّة من حكاية نواف مع العمدة، ويذكر الحاكم وجماعته وفهمهم للاشتراكية بصفتها حقوقًا فحسب، إلى أن يتهكّم على العمدة زمن السادات.

هي رواية اتضحت إرادة الكاتب السيد نجم الراغبة الولوج في حقول التحريب والابتعاد عن المألوف.. وأخيرًا لابد من الإشارة إلى قدرة نواف على استشراف المستقبل عن طريق تمييزه للروائح تتناص مع رواية عطر لزوسكيند، كما أن

العصافير التي تنقر على زجاج مضيفة نواف تتناص مع رواية الطيور لهيتشكوك.

أدهم مسعود القاق، كاتب سوري